مجتمع

اليمن: ارتفاع وفيات الكوليرا إلى 720

أعلنت القائمة بأعمال وكيل الأمين العام للأمم المتحدة للشؤون الإنسانية، جويس مسويا، ارتفاع حصيلة وفيات مرض الكوليرا في اليمن إلى 720 شخصاً منذ مارس/ آذار الماضي. وقالت، خلال جلسة لمجلس الأمن الدولي بنيويورك مساء الثلاثاء، ناقشت تطورات أزمة اليمن، إن «الكوليرا يواصل الانتشار في اليمن، حيث تم الإبلاغ عن أكثر من 203 آلاف حالة مشتبه في إصابتها بالمرض منذ مارس/ آذار الماضي». أضافت أنه خلال الفترة ذاتها، «فقد أكثر من 720 شخصا حياتهم بسبب الكوليرا، وتشكل النساء والفتيات 53% من الحالات». (الأناضول)

فيضانات غرب ووسط أفريقيا تحرم الأطفال التعليم

حذّرت منظمة «سايف ذا تشيلدرن» (أنقذوا الأطفال) من أنّ عشرة ملايين طفل محرومون من التعليم في غرب أفريقيا ووسطها بسبب الفيضانات الضخمة التي اجتاحت المنطقة. ودعت الجهات المانحة إلى مدّ يد العون للمتضررين. وطالبت، في بيان، بتقديم بدائل عاجلة للأطفال المحرومين من المدارس وتعزيز حماية المؤسسات التعليمية من الظواهر المناخية المتطرفة في المستقبل. وأوضحت أنّ «الأمطار غير المسبوقة التي هطلت على نيجيريا ومالي والنيجر وجمهورية الكونغو الديمقراطية أدّت إلى تفاقم الأزمة في قطاع التعليم». (فرانس برس)

وجع الفقدان (عمر القطاع/ فرانس برس)

مخيم جباليا... وكأن الحرب بدأت للتو

يشعر المحاصرون في مخيم جباليا أن الاجتياح البري والحصار الجديد الذي يفرضه جيش الاحتلال يكاد يكون الأسوأ منذ بدء العدوان قبل أكثر من عام. لكن المأساة تتكرر من تجويع وقتل ومنع الإسعافات

غزة ـ **يحيى اليعقوبي**

يدخل الاجتياح الإسرائيلي لمخيم جباليا ومحيطه يومه الرابع عشر على التوالي، حيث يفرض الاحتلال حصاراً خانقاً من كل الاتجاهات، ويواصل منع دخول المساعدات الإنسانية من مواد غذائية ومياه وأدوات طبية وأدوية علاجية أو تحويل المصابين إلى مستشفيات أخرى. يضاف إلى ما سبق انعدام الوقود الذي أدى إلى عدم قدرة البلديات على ضخ المياه، فضلاً عن خروج مستشفيات الشمال عن الخدمة، ونفاد مخزون المياه والطعام لدى الأهالي، وانتشار جثث الشهداء التي بلغ عددها نحو 300 في الشوارع، وسط صعوبات كبيرة في رعاية مئات المصابين داخل مستشفيات القطاع، بالتزامن مع استمرار قصف الاحتلال أية معالم للحياة بهدف دفع الأهالي للنزوح نحو جنوب القطاع. تزداد مخاوف العشرينية رانيا أبو حميدة، وهي من سكان بلدة بيت لاهيا شمالي قطاع غزة، مع اقتراب دبابات الاحتلال من منزلها، والتي أصبحت على بعد ثلاثة شوارع منها، وهو ما يظهر بوضوح من خلال سماعها أصوات محركات الآليات، الأمر الذي يشير لقربها، يرافقه قصف مدفعي لا يتوقف وتحليق مكثف للطائرات في السماء.

تشبه أبو حميدة روتين الحياة اليومي وسط الحصار والاجتياح، بحياة الأسرى في سجون الاحتلال. تقول لـ «العربي الجديد»: «نحن في سجن من دون ماء أو وجبات طعام كاملة. لا نعلم أخبار أحد ولا أحد يعلم أخبارنا. ننام على ضوء الصواريخ. ووصلنا إلى مرحلة صرنا نطمئن فيها على جيراننا عندما نسمع صراخهم من جراء القصف». تضيف «الحركة مشلولة بالكامل. أي جسم متحرك يعني أن تطلق الطائرات الرصاص عليه مباشرة، فتبقى جثته مكانها إذ ليس باستطاعة أحد إسعافه». تصف الأيام السابقة بـ «القاسية جداً»، تشبه في قسوتها أيام الحرب الأولى، وكأن الحرب بدأت للتو «لكنني أخبركم أنها أشد وأصعب».

عن إعداد الطعام والخبز، توضح: «لا نستطيع تشغيل الفرن لإعداد الخبز، فنقوم بتقطيع أشجار أرضنا الزراعية للحصول على الحطب، ومنها نعد رقائق الخبز. لكن الأهالي والجيران ممن ليس لديهم أراض زراعية يشعلون النار بحرق ملابسهم القديمة أو البلاستيك أو النايلون».

في ظل عدم قدرة البلديات على توصيل المياه للمواطنين شمالي القطاع، يلجأ الأهالي لاستخدام الطاقة البديلة (ألواح شمسية) لتشغيل الآبار وسحب المياه وتوزيعها على الجيران. ومع حلول الظلام، تقضي أبو حميدة وعشرات الآلاف ممن بقوا في شمال القطاع الليل بخوف شديد. تقول: «كل شيء حولنا يوحي بعدم الأمان. صوت الدبابات ورصاص القناص والطائرات الذي لا يتوقف نهائياً، وأحياناً أصوات الجنود الإسرائيليين ونباح كلابهم التي نخشى أن تقتحم بيوتنا». بالتزامن مع ذلك يقوم الاحتلال بنسف مربعات سكنية كاملة ويتردد صداه في شوارع الأحياء الفارغة، مبينةً «لحد الآن أهل البيوت تحت الركام ولا يستطيع أحد الاقتراب منهم لأنه سيتعرض للاستهداف المباشر، في بداية الأمر كنا نسمع صوت طلب المساعدة من بعض الأحياء تحت منازلهم، ولكن الآن انقطع الصوت وهي علامة على استشهادهم».

عن سبب اختيار البقاء وعدم النزوح، تجيب أبو حميدة بكلمات ملؤها الصبر قائلة «صبرنا على الجوع عاماً كاملاً، مرت أشهر وأيام طويلة لم نذق فيها إلا المعلبات وبعض الخبز إذا توفر بشكل نادر، نمنا في الطرقات، في ممرات المشافي وبجانب الأشلاء، وخسرنا بيتنا وكل ما نملك، ومع ذلك، مستعدون أن نستقبل أعواماً جديدة أصعب من هذا الحال الذي نحن به، لكن لن نترك شمال غزة».

ومع كل ما تعيشه أبو حميدة، استشهدت صديقتها أريج فلفل وزوجها وابنها وكل أفراد عائلتها، أثناء قصف الاحتلال لمنزلهم قبل أيام، الأمر الذي أدخلها في «حالة حزن شديدة».

تطهير عرقي

من خلال تطبيق الحصار من جميع الاتجاهات، يعزل الاحتلال المنطقة الشمالية لقطاع غزة بشكل كامل، علماً أنها تضم بلدات بيت حانون وبيت لاهيا وجباليا، بهدف تنفيذ ما يسمى «خطة الجنرالات» في شمالي القطاع، لتطهير الشمال عرقياً من خلال إبادة وتجويع الأهالي الرافضين الخروج من منازلهم حتى الموت، ومنع وصول المساعدات بما فيها الاحتياجات الأساسية. الشاب محمد وهو من سكان الشمال، يقضي جل يومه في البحث عن مياه صالحة للشرب حينما تسمح له الفرصة بالخروج من المنزل مع لحظات الهدوء، والتي يتوقف فيها صوت القصف المدفعي، ومياه الاستخدام المنزلي لأماكن بعيدة عن منزله مع عدم وجود آبار قريبة، وبصعوبة كبيرة يستطيع ملء بعض خزانات المياه الصغيرة في رحلة محفوفة بالمخاطر، مع خشيته من تكرار المجازر التي ارتكبها الاحتلال بمحافظة الشمال، واستهدف فيها تجمعات للمواطنين أثناء تعبئة المياه. وتعليقاً على خطة التهجير، يقول لـ «العربي الجديد»: «لن نخرج من بيوتنا إلا على أجسادنا ودمائنا، لن نخرج من بيوتنا ولن ننزح إلى جنوب القطاع». يوضح: «لا تبعد آليات وجيش الاحلال سوى 400 متر عن منزلي، وهي قريبة جداً منا، تزامناً مع قرب نفاد مخزون الطعام لدينا، وانقطاع مياه الشرب، ولا أبالغ لو قلت إنه تمر ساعات عدة ولا نجد مياهاً للشرب، وبالكاد نأكل وجبة يومياً مما تبقى من المعلبات». ويصف ما يعيشه خلال الاجتياح الثالث لمخيم جباليا، بأنه «أسوأ أيام تمر عليه منذ بداية الحرب»، لافتاً إلى أن حالة التجويع قاسية للضغط علينا لدفعنا للذهاب نحو الجنوب، وهذا مستحيل أن يحدث ولن ننزح إلا إلى الجنة أو نبقى في منازلنا».

ومن زاوية أخرى لما يحدث خارج منزله، يقول لـ«العربي الجديد»: «صوت الانفجارات لا يتوقف، وأحياناً تقترب مسيرات الاحتلال من منازلنا (كواد كابتر) وتطلق الرصاص علينا، وتزداد أصوات الانفجارات ونسف البيوت، فيما يهلع الأطفال والنساء». ومع استمرار الاجتياح، ارتفعت حصيلة الشهداء بمخيم جباليا إلى نحو 300 شهيد ومئات المصابين، ولا تزال فرق الإسعافات والدفاع المعدني عاجزة عن انتشال جثث عشرات الشهداء من الشوارع والبيوت المستهدفة بسبب منع الاحتلال ممارسة عملها واستهداف تلك الطواقم. ومنذ بدء الاجتياح الإسرائيلي للمخيم حتى اليوم، وتمركز الدبابات عند دوار التوام وأبو شرخ إلى الغرب، أصبح يعرف هذا التقاطع الذي كان يسلكه الناس للنزوح من المخيم نحو مدينة غزة بـ «تقاطع الموت»، إذ تطلق الدبابات النار والقذائف على أي جسم يتحرك.

نسف مربعات سكنية

في منطقة الفالوجا إلى الغرب من مخيم جباليا، وقف عبد أبو صفية بنظرات ذهول فوق ركام منزله ومربع حارته السكني الذي تعرض للنسف من قبل جيش الاحتلال، بينما أخلى السكان منازلهم ونزحوا إلى مركز إيواء، وعاد بعضهم لتفقدها.

تحت مرأى من طائرات الاحتلال التي تملأ سماء المنطقة، سار أبو صفية وبعض الأهالي بين ممرات المخيم المهدمة، ووصلوا إلى منازلهم للاطمئنان عليها، وكان المشهد أشبه بزلزال ضرب المنطقة. بصوت مليء بالقهر والحسرة، يقول أبو صفية لـ «العربي الجديد»: «لم يتبقَ بيت نسكن فيه، ها أنا أقف فوق الردم، جئت إلى هنا لتفقد المنزل الذي تحول إلى ركام، وللبحث بين الردم عن طعام، وبعد البحث وجدت علبة ذرة بوزن 50 غراماً. سيأكل منها أربعة أشخاص. ونبحث عن مياه في أي من الخزانات في المنطقة لتعبئة غالون مياه صغير للعودة به إلى مركز الإيواء». ويلفت إلى أن جيش الاحتلال قصف آبار المياه في المنطقة، ما فاقم الوضع المأساوي وحرم الأهالي المياه، تزامناً مع تفجير الاحتلال مربعين سكنيين بالمنطقة.

بعد قصف استهدف مخيم جباليا (عمر القطاع/ فرانس برس)

عن الإبادة والنقصان

شهادات ناجيات وناجين من حرب غزة

هذه شهاداتٌ لناجين وناجياتٍ من الحرب في قطاع غزّة التقيتُهم في البرزخ. حكاياتٌ مسكونةٌ بالأشواك تحاول التجديف في الفاجعة، سلسلةُ قصص توثيقيّة تبحث في ثيمة النُّقصان. هُنا بشر فقدوا كلّ شيء: عائلاتهم، بيوتهم، أطرافهم، احشاءهم، قطعا من اللّحم اعتادت ان تكسو عظامهم، حواسّ زوّدتهم بها البيولوجيا لالتقاط معلوماتٍ عن العالم الخارجيّ، ورقة تين تواري سوأة خطيئة لم يقترفوها، ولغة متماسكة لم يُصبها ما أصاب اصحابها من تشظ وشتات واستحالة إلى أشلاء متناثرة. قصص النّقصان هذه: نُقصان الاجساد من اعضائها، الخريطة من تضاريسها، التّربة من بقلها وقثّائها وزيتونها، البحر من اسماكه، القصائد من وزنها وقافيتها، المنظومة التّعليميّة من اساتذتها وتلامذتها، المشافي من حبّة دواء، قصص تحاول الاكتمال عبر روي النّقصان، صوت الضحية - التي لم تعد تملك غير ذاكرتها فعلاً للمقاومة - لجعل اللغة البشريّة الحسّيّة قادرة على تجسيد الالم او النظر إليه، إنها محاولة لرؤية الإبادة من وجهة نظر خاصّة بلحظة معيّنة تبحث فيما حدث لفلسطينيّي غزّة بعد السّابع من أكتوبر.

هذه الشهادات التي تكتبُها الروائيّة سمر يزبك وتنشرُها «العربي الجديد» على حلقاتٍ ستصدُرُ لاحقا في كتابٍ يحمِلُ اسمَ «ذاكرة النّقصان»

شهادة **أمل الأدهم**

يما أنا عايشة! أنت لسه عايشة يما؟!

سمر يزبك

أنا متزوجة منذ عمر السادسةَ عشرةَ، زوجي من بيتِ الغَبَن، ونعيش بالقربِ من بيت عائلتي. في السابعِ من أكتوبر، ولأنّ بيتنا قريبٌ من الحدودِ مع الإسرائيليين، فقد قرّرنا المغادرةَ على الفور، حين شعرنا باقترابِ الاقتحامِ البريّ. لجأنا إلى إحدى المدارس، صرنا نازحين. الخطرُ استمر قريبًا جدًا منّا، ورغمَ ذلك بقينا نعودُ إلى بيتنا أحيانًا. في إحدى المرّاتِ كان أخي في المنزلِ عندما تعرَّض للقصف، وعندما ذهبتْ أمي لزيارته في المشفى، أصابها القصفُ هي أيضًا في الطريق. اختفت لمدةِ يومٍ كاملٍ، لم نعرف مكانَها ولا مصيرَها ذلك اليوم. كانتْ في منطقةِ الصفطاوي عندما أصابها الصاروخ، وفقدنا أثرَها، أين اختفت؟ كانت في المشفى ولكن لم يعرفها أحدٌ بسبب التشوُّهات التي أصابت وجهَها. عندما وجدناها في المستشفى في اليوم التالي، لم يكن وجهُها هو وجهَ أمي الذي أعرفُه. كان مغطى بالشاش، وجسمُها مليءٌ بالجروحِ العميقة، مع وجودِ صفائح بلاتين في ساقيْها. تعرَّفتُ عليها فقط من صوتِها! كنتُ في حالةِ صدمةٍ شديدةٍ، أسألُ نفسي: هل هذه فعلًا أمي؟ وعندما صرخت قائلةً: «أمل، ما تتركينيش!» عرفتُ حينها أنّها هي. قضيتُ شهرًا بجانبِ أمي في المستشفى الإندونيسي، ورأيتُ هناك أشياءَ لا يمكن وصفُها بالكلمات. رأيتُ بعينيَّ ما يحدث، ولم أستطع تصديقَ أنني ما زلتُ حيّة. كلّ يومٍ أسألُ نفسي: هل أنا فعلًا أعيشُ أم أنّني في كابوسٍ؟

دخلنا في منتصفِ شهرِ أكتوبر 2023 ولم أستوعبْ ما كنتُ أراه يوميًا. بشرٌ بلا أطرافٍ، بلا أيدٍ، بلا عيونٍ، جثثٌ مقطوعةُ الرؤوس. الأصواتُ وألوانُ الدمِ والروائحُ الكريهةُ تملأ المكانَ. الأجسادُ البشريةُ لم تعدْ تشبهُ البشر. أطفالٌ كأنّها قطعٌ مكوّمةٌ من اللحم. لم أرَ جسدًا كاملًا. عجزت أن أتذكرَ أجسادًا مكتملة، لم أستطع. الروائحُ بقيت في أنفي، روائحُ تعفُّنِ الجثثِ والأجسادِ الحيّة. ليس هناك ماءٌ أو طعامٌ أو دواء. سألت نفسي: لماذا إذن نحن هنا في المستشفى إن لم يكون هناك علاجٌ لهؤلاء البشر؟ رأيتُ الناسَ يتحلّلون أمامي، سواءً كانوا أمواتًا أم أحياء. الدودُ يخرجُ من أجسادِ الأحياء، ولم يوجدْ أمام الأطباءِ أيُّ حلّ. لذلك تطوعتُ لأكون ممرضةً ومعي صديقتي، ارتدينا قفازاتٍ بلاستيكيةً وبدأنا العملَ. رغم قلّةِ الإمكانيات حاولنا فعلَ ما نستطيع. وفي تلك الأثناءِ استمرّ الطيرانُ الإسرائيليُّ يقصفُ المستشفى. ضربوا الألواحَ الشمسيةَ التي تولِّدُ الكهرباء. الدباباتُ أحاطت بالمكان. لم أصدقْ ما كان يحدثُ لو لم أره بعيني. لا كهرباء، لا ماء، لا شيء. هكذا حاصرَ الإسرائيليون المستشفى الإندونيسي. في العنايةِ المركزةِ مرضى على وشكِ الموت. ومن ثمّ قصفَ الإسرائيليون الطابقَ الثالث حيثُ قسمُ الأطفال. ركضتُ إلى هناك، رأيتُ الجثثَ. لقد قصفوا مستشفى مليئًا بالأطفال! غادرتُ الطابقَ المقصوفَ وعدتُ إلى أمي. أخذتُها إلى ممرٍّ بعيدٍ عن القصف، قلتُ لنفسي: سأموتُ بجانبها. نمتُ بجانبها على الأرض، والقصفُ استمر بلا توقفٍ. قرّرنا ألّا نستسلم. نظفنا المكانَ قدرَ المستطاع بعد القصف وقلنا لأنفسنا: «سنموت، ولكن قبلَ ذلك سنفعل ما بوسعنا». أتذكرُ ذلك اليوم، كان يوم الخميس، أصعبُ يومٍ في حياتي فقد نزلنا إلى القبو، نظفناه وجلسنا فيه نحتمي. فجأة، خلعوا البابَ ودخلوا علينا، كانوا وحوشًا مسلّحين بكلّ أنواع الأسلحة. ومعنا الكثير من الأطفالِ والعجائزِ والجرحى والمبتورين. رأيتُ امرأةً نزَف الدمُ من عينِها بشكلٍ مفاجئ، مثل نافورة. تسمرنا واقفين نشاهدُ في ذهول. قلت لها: «عينُكِ تنزف!» استمرت متجمِّدةً في مكانِها، واقفةً كالصخرة. لم تتحرك. لقد أُصيبت بشظيةٍ في عينِها عندما خلعوا الباب ولم تصرخْ من الخوف، ربما حتّى لم تشعر بالألم بسبب الخوف. بعد ذلك جمعونا في ساحةِ المُستشفى، دخلوا علينا بكلابِهم وأسلحتِهم. رأيت هناك امرأةً مُسِنَّة، في الثمانينَ من عمرِها، جريحةٌ وجالسةٌ على الأرض. قتلوها مُباشرةً بمجردِ دخولهم. لم تصدرْ أيّ صوتٍ، لم تَئِنَّ حتّى، قتلوها بدمٍ باردٍ. بعد ذلك، أطلقوا رصاصتين على شابٍ فأردَوه قتيلاً. كنا حوالي 180 شخصًا، دخلوا بالدباباتِ والطائراتِ المُسيّرة، ونحن مُجمّدون في مكانِنا، رفعنا أيدينا مُستسلمين.

جلسنا على رُكَبِنا ورفعنا أيدينا، فيما قاموا بتجريدِ الشباب فوق العشرينَ من ملابسِهم، نحنُ الفتيات جعلونا نقف جانبًا. راحوا يصرخونَ علينا، يأمروننا بالوقوف. إحدى المُمرضاتِ، واسمها أسماء، فتّشوها، قالت لهم: «أنا مجردُ ممرضة!» لكنهم لم يُصدِّقوها. فيما بعد أخذوا بصمةَ العينِ لنا جميعًا، القناصةُ يُحيطونَ بنا مُوجِّهين أسلحتَهم نحونا، أخذنا نرتجفُ من البردِ والخوف، والشباب كانوا يرتجفون أيضًا بعد أن جعلوهم يقفون شبهَ عُراةٍ بملابسِهم الداخليةِ فقط. فحصونا امرأةً تِلوَ الأخرى. كان يومًا أسودَ بكلِّ معنى الكلمة. ودَّعت أمي، قلت لها: «سامحيني يا أمي، قد لا أعود». أمي كانت طريحةَ الفراش، لم تستطعْ الحركة، فنقلناها في سريرِها. أتذكر شابًا يُدعى مؤمنٍ مأمون، كانت ساقُه مُثبّتةً ببلاتين، ضربوهُ بقسوةٍ حتّى خرجَ البلاتين من جسدِه. لا يزال صُراخُه يترددُ في أذني حتى اليوم! لا أفهم كيف عشتُ ولماذا بقيتُ على قيدِ الحياة. كنا جميعًا نصلي، ننتظرُ الموت، ونعرفُ أننا سنموت. كانوا يضربونَ الجرحى على جروحِهم وأطرافِهم المبتورة، ويسخرون منهم قائلين إنهم ليسوا مرضى! أنا أعرف معظمَ هؤلاء الأشخاص، كلّهم مرضى عاجزونَ ومُقطّعون. رأيتُهم بأمِّ عيني. أكثرُ ما لا أستطيعُ نسيانَه هو دخولُهم إلى غرفةِ تغسيلِ الموتى، حيث اقتحموا المكانَ بالدبابات، داسوا على الجثثِ بالدبابات، جثثُ ميتةٌ تعرَّضت للهرسِ مجددًا. رأيتُ هذا بأمِّ عيني!

بعد أن انسحبوا، بقينا في الممرّ، البردُ قارسٌ ونحن خائفونَ. جاء الصليبُ الأحمرُ لاحقًا لإجلاء الناسِ من المستشفى. بعد خروجِهم، رأينا العددَ الكبيرَ للموتى، كانوا مشوهينَ بشكلٍ لا يمكن وصفُه. حتى تلك اللحظة، لم ندركْ تمامًا أنّ ما حدثَ كان مجزرةً. كنّا نحن في قلبها. لا أستطيع نسيانَ كلابهم وأصواتهم المخيفة. كانوا يبحثون في كلِّ مكانٍ، يسألون عن حماس والأسرى، نحن مجردُ جرحى، أغلبُنا من كبارِ السن والأطفالِ والنساء، ومعظمنا مُبتوري الأطراف بسبب القصف. أذكرُ أنّنا لم نجرؤْ حتّى على فتح النوافذ. كانوا يقنصونَنا إذا اقتربنا منها، تقتلُنا طائراتهم المُسيّرة. القصفُ الذي لم يتوقف جعلنا في حالةٍ من الجنون. حاولتُ مرةً أنا وصديقتي الصعودَ لجلبِ بعضِ الأغراضِ من الطابقِ العلوي. بمجرد أن رأونا، أطلقوا النارَ علينا، فاضطررنا للارتماء على الأرضِ وترك كلّ شيءٍ خلفنا. لم نستطعْ التحركَ حتى داخلَ المستشفى، كنّا كفئرانٍ في مصيدة. أذكر أيضًا عندما اختفى الماءُ من الحمّامات، لم تكن هناك قطرةُ ماءٍ واحدة. كان الوضعُ صعبًا علينا نحن النساء.

> لا أستطيع نسيانَ كلابهم وأصواتهم المخيفة. كانوا يبحثون في كلِّ مكان، يسألون عن حماسٍ والأسرى

أنا أخافُ رؤيةَ الدم، يُغمى عليّ. لكن فجأةً، شعرتُ بالقوة والمسؤولية لأعالجَ الجرحى. تخيلي، كنت أخلط ماءَ الأوكسجين بالمحلول لتنظيفِ الجروح. هذه المادةُ خطيرة، وإذا أخطأتُ في قياسِ الكمية، يمكن أن تكونَ قاتلة. قمت بتجريبِها أولًا على ساق أمي، ثم استخدمتُها لتنظيفِ جروح الآخرين. لا أعرفُ كيف فعلتُ ذلك، ولا أتذكر الكثيرَ من التفاصيل، لكنني كنت أفعلُ ما بوسعي. في العنايةِ المُركّزة، كان هناك شخصانِ يُعانيان من حروقٍ من الدرجةِ الأولى. طلبوا أن يشربوا الماء، وكنتُ أعرف أنهما يحتضران. بدأت أبكي حين رأيت الدودَ يخرج من أجسادهم! كانوا مجردَ كُتلٍ لحميةٍ تتآكلُ أمامي، ولم يكن باستطاعتي سوى أن أُسقيهم الماء. لم أستطعْ تصديقَ أنني ما زلتُ على قيدِ الحياة بعد هذه التجربة، بقيت في حالةٍ من الصدمة. ذهبتُ إلى أمي، حضنتها وأنا أصرخ: «أنا عايشة!» وأمي تُردِّد: «أنتِ عايشة!» نظرتُ حولي، كانت الجُثثُ مُتناثرةً. أنا وأمي ننظر في عيونِ بعضِنا غيرَ مُصدقين.

لقد حَطَّموا كُلَّ أجهزةِ المُستشفى ومُعداته، دَاسوا على الأدويةِ بالدباباتِ حتى لا نتمكَّن من استخدامها. اعتقلوا المُمرضينَ والجرحى، حتّى المقطّعينَ منهم. لا أعرف ما الذي سأحتفظُ به في ذاكرتي من كُلِّ هذا! خرجنا في السادسةِ صباحًا يومَ الجمعة، يوم الهدنةِ متوجهين إلى الجنوبِ. وعند خروجنا من باب المُستشفى، رأيتُ الكلابَ والقططَ تأكلُ الجُثث. أحَدُ الأشخاص جاء ليتعرَّفَ على جُثةِ شخصٍ يقربه، ليجد أنّ الكلاب كانت قد أكلَت وجهَه. الجُثثُ التي داستها الدبابات بدتْ مُشوهةً لدرجةِ استحالةِ التعرُّف عليها. كان يومًا غريبًا، الناس تمشي في حالةِ ذُهول، ينظرون إلينا غيرَ مُصدقين أنّنا أحياء. بينما آخرون يبحثون بين الأشلاء. أتذكرُ طفلًا قال للإسرائيليّين عندما اقتحموا المشفى وادعوا أنّهم جاؤوا لحمايتِنا بعد أن قتلوا المرأةَ العجوزَ الجريحة: «يعني حتجيبوا أكل؟» الجوعُ وقتها أوشكَ أن يقتلنا، وبقينا في صدمةٍ مثل ذلك الطفل. عندما وصلنا إلى حاجزِ صلاح الدين، أوقفونا وعذَّبونا أثناءَ التفتيش، عذَّبوا الجرحى أيضًا! كنتُ مشوشةً، رأسي يهتزُّ من الصدمة. بدأوا يصرخون في الميكروفونات، ونحن جميعًا على وشكِ الانهيار، مرضىً ومقطَّعين. طلبوا من الجميعِ النزولَ، كيف سينزلون؟ لا أحدَ منهم يستطيعُ الحركةَ! من بين خمسينَ شخصًا كانوا في الباص، كنتُ أنا قادرة على النزول، ومعي امرأةٌ أُخرى، أمّا الباقون فكانوا مُبتوري الأطراف. سألونا: «مافي غيركم؟» تجمدتُ من الرعب، كانوا يرون البشرَ المقطعين أمامهم. أخذوا الفتاةَ التي كانت بجانبي. ثم قال لي أحد الجنود: «أنت ارجعي!» تجمدتُ، شعرتُ أنّني لا أستطيعُ الحركة. قلتُ له: «لا أستطيعُ المشي!» فجَرَّني جَرًّا، بقينا ساعة يفتشوننا وأنا جامدة قُربَ أمي. بعد انتهاء ذلك الجحيم، ذهبنا إلى مستشفى ناصر.

اعتقلوا أبي في السابعِ من أكتوبر، كان مجردَ عاملٍ وبقي مُعتقلًا عندهم مدّة شهرين لم نكن نعرفُ عنه شيئًا. عندما خرجَ من السجن، استمرّ جسدُه يرتجف بسبب التعذيبِ الوحشيّ الذي تعرضَ له. أخبرنا كيف كانوا يربطون أيديَهم وأرجُلَهم، ويجعلونهم ينامون على حجارةٍ مُدببة. حينَ خرج كان في الخمسينَ من عمره، وجسدُه مُنهكٌ تمامًا! أُلقي بهم عراة ومكبّلين، بلَا طعامٍ أو شراب. نجا أبي من الموت في الاعتقال، لتقتُلَهُ طائرةٌ مسيرةٌ برصاصةٍ في رقبته في ما بعد.

يصعب على الأحياء تصديق أنهم ما زالوا أحياء (محمود عيسى/ الأناضول)

شهادة **عبدَ الله يوسف عكيلة**

بروميثيوس الذي أحرقته النار!

يعملُ أبي موظفًا إداريًا في مطعمٍ إضافةً لعمله مصورًا صحافيًا، أمّا أمي فقد أنهت دراستَها الجامعيّةَ في اللغةِ العربية. لديَّ أخٌ صغيرٌ يبلغُ من العمرِ ستَّ سنواتٍ، وأخي الأكبر عمره اثنانِ وعشرونَ عامًا وأختي تسعةَ عشر عاماً. كنّا نعيشُ بسعادةٍ وكرامةٍ معًا. في فجرِ السابعِ من أكتوبرَ، سمعتُ الصواريخَ تنطلقُ من غزةَ. اعتقد الناسُ أن فلسطينَ ستتحرر، أنا أستمعُ إلى أحاديثهم رغم أنّي لا أفهمها تماماً. ومن ثم اندلعتِ الحربُ، بدأ الإسرائيليون قتلنا وتهجيرَنا. بقيتْ عائلتي في البيتِ، لم نغادرْ رغمَ القصفِ المستمرّ. وصلَ الإسرائيليونَ إلى شارعٍ قريبٍ منا، كانوا يقصفونَ البيوتَ دون توقفٍ ويرمُونَ مناشيرَ تطالبنا بالرحيلِ من الشمالِ إلى الجنوبِ. في النهايةِ، قررنا النزوحَ إلى منزلِ عمي في حيِّ الصحابةِ شرقَ غزةَ. نزحنا إلى هناكَ، لكنّ القصفَ لم يتوقفْ، ولم يختلفِ الوضعُ كثيرًا. ولأنّ البيتَ كان قريبًا من الحدودِ مع الإسرائيليينَ، فضّل أهلي الانتقالَ إلى بيتِ عمي. الحياةُ هناكَ صعبةٌ جدًا، كنتُ أمشي لمسافاتٍ طويلةٍ للحصولِ على الماءِ للشرب. أحملُ الماءَ لأهلي يوميًا. في بيتِ عمي، هناك أكثرُ من خمسةٍ وأربعينَ شخصًا في مبنى واحدٍ، مع نقصٍ في الطعامِ والماءِ، وانعدامِ الكهرباء. مرَّت الأيامُ بصعوبةٍ، حتّى عندما أعلنوا عن هدنةٍ لمدةِ سبعةِ أيامٍ؟ هل استمرتِ الهدنةُ لفترةٍ أطولَ! لا أذكرُ تمامًا تفاصيلَ تلكَ الفترةِ.

كان ذهني مشوشًا، وما أذكرهُ بوضوحٍ هو أنّ القصفَ لم يتوقفْ. رأيتُ الأبنيةَ تنهارُ من حولي، عشنا تحتَ هذا الخوفِ المستمرِّ. لم يكنِ القصفُ عاديًا، بل استخدموا الأحزمةَ الناريةَ، مشاهدُ الدمارِ مرعبةٌ. شعرتُ بالخوفِ، لكني لم أكنْ أعبّرُ عن ذلكَ أمامَ عائلتي حفاظًا على هدوئهم. مع بدايةِ الهدنةِ، قررَ أبي أننا لن نخرجَ من المنزلِ مهما حدثَ، حتّى لو اقتحمَ الجيشُ الإسرائيليُّ المَنطقةَ برًا. أُختي خائفة، كانت تبكي وتريدُ النزوحَ، وفي النهايةِ استجابَ أبي لأن الأخبارَ كانت تؤكدُ أنّ الاقتحامَ البريَّ قادمٌ، وأن الإسرائيليينَ يقتلونَ كلَّ من يصادفونه. قررنا المغادرةَ في آخرِ يومٍ من الهدنةِ، عند الساعةِ السابعةِ صباحًا بدأ القصفُ، فخرجنا من المنزلِ.

أخي الأكبر بقيَ مع عمي في معسكرِ الشاطئِ، حيثُ أصرَّ عمّي على البقاءِ في دارهِ حتّى الموتِ، ورفضَ أخي الأكبرُ تركَه. أمي مُصمّمةٌ على الخروجِ، لكنها في الوقت نفسه خائفةٌ جداً. أنا رغبتُ في البقاءِ مع أخي، لكنني لم أتحدثْ ولم أقلْ. أنا الابن الأصغرَ، نظراتُ أمي كانت ستكفي لجعلي أصمتُ وأمشي معهم. وفي كلِّ الأحوالِ، كنّا سنخرجُ، لأنّ الإسرائيليينَ أرسلوا أوامرَ واضحةً بأنّ من يبقى سيُقتلُ. حملنا أمتعتَنا، أنا وأعمامي وعمّاتي، وركبنا في حافلةٍ تابعةٍ للأونروا. كنّا ستةَ عشرَ شخصًا في حافلةٍ تحملُ شعارَ الأممِ المتحدةِ وعلمَها. طلبَ أبي من أقاربنا انتظارَنا، هو يريد الخروجَ معنا، لكنّه فضّلَ البقاءَ مع جدتي المقعدةِ، وقال لنا إنه سيلحقُ بنا في الدفعةِ الثانيةِ. هكذا، تركْنا أبي وذهبنا وحدنا. ركبنا الحافلةَ وانطلقنا، القصفُ مستمرٌ حولنا. قالوا لنا إنَّ الحافلاتِ التابعةَ للأونروا لن تُقصف، وكنتُ أرى وأسمعُ القصفَ من حولي. أذكرُ أنني كنتُ أرتجفُ من الخوف، الحربُ تحاصرنا من كلِّ جانبٍ. عندما وصلنا إلى ملعبِ فلسطينَ، تعرضنا للقصفِ، أطفالٌ ونساءٌ داخلَ الباص. وكان السائقُ موظفًا من الأونروا. لم تكن قذيفةً واحدةً التي سقطت علينا، بل عدةُ قذائفَ! الجميعُ احترق، أعمامي، أمي، وكلُّ أهلي! كنتُ في قلبِ الباصِ عندما سقط الصاروخُ، رأيتُ لونًا أحمرَ يغمرُ كلَّ شيءٍ. أذكرُ أنني بدأتُ أضربُ جسدي، لم أفقدْ الوعيَ، أخذتُ أضربُ وجهي المحروق، معتقدًا أنني في كابوسٍ وأردتُ أن أستيقظَ، ولم يكن كابوسًا. حدث كلُّ شيءٍ في رمشةِ عينٍ، كان الاحتراقُ كبيرًا والانفجارُ هائلًا!

كنّا قد حملْنا معنا بعضًا من أثاثنا من البيتِ، بما في ذلك جرةُ غازٍ وعبوةُ بنزينٍ، وعندما قصفونا، انفجر الباصُ بأكمله. رأيتُ أمي تحترقُ أمامَ عينيَّ! سمعتها تنطقُ الشهادةَ، وأختي كذلك ماتتْ أمامي، رأيتها تحترق. زوجةُ عمي وابنتُها احترقتا أيضًا، متْنَ احتراقًا داخلَ الباص. كان هناك قناصُ خلفنا، وطائرةُ «الكوادكابتر» فوقنا، القناصُ أطلق النارَ على الباصِ المحترق، وقصفتنا الطائرة. ستة عشر شخصًا في الباص، مات أربعةٌ، وخرجنا نحن الاثني عشر الباقين أحياءً، أحياءً ولكن مُحترقون.

أذكرُ أننا مشينا ونحن نعاني من الحروقِ الشديدةِ حتّى وصلنا إلى سيارةِ الإسعافِ. لم أشعرْ بالآلامِ فورًا من شدّةِ الضربة، لكنّ الألم بدأ عندما صعدنا سيارةَ الإسعافِ. كان ذلك في يومِ الرابع من ديسمبر. حاولتُ أن أواسيَ أخي الصغيرَ الذي يبلغُ ستَّ سنواتٍ، كنتُ أقول له: «هذه لعبةٌ»، محاولًا التخفيفَ عنه. أخذونا إلى مستشفى المعمداني، لكن لم يكن هناك أدويةٌ ولا أيُّ شيءٍ يساعدنا. وجهي احترقَ وانتفخَ وصارَ لونهُ أسود، وأخي كان غائبًا عن الوعي، المستشفى لم يكن يبدو كمستشفى. وجهي يؤلمني بشدة، وعندما رأيتُ شكلي شعرتُ بالرعب. أخي جاد، حالته أسوأ، لديه ثلاثة كسورٍ في رجليه وحروقٌ شديدة. عندما وصلَ أبي إلى المستشفى، لم يتعرفْ عليَّ في البداية. قالوا له: «هذا ابنك!»، أخذ ينظرُ إليَّ مذهولًا. ثمّ ذهبَ ليرى أخي، وعاد يبكي. أخبرني بذلك لاحقًا. كنتُ أسمعُ ما يدورُ حولي بصعوبةٍ، والألم ينهشُني. أخي الصغيرُ كان يطلبُ الماءَ باستمرار، وأبي ينظرُ إليه بعينين مليئتين بالأسى. من طرفِ عيني، رأيت ما يحدث. أخي جاد كان كتلةً لحميةً محترقةً، سمعته يطلب أن يرى أمّه. لم أكن أفهمُ ما يجري حولي بوضوحٍ. في اليوم التالي، شعرَ أبي وهو يمسكُ بيديَ أخي أنّ يديه باردتان، قال الطبيبُ إنّ أخي قد مات. بالكاد كنتُ أستطيعُ سماعَ ما يحدث، الآلام تقتلني، حروقُ وجهي وجسدي والشظايا المؤلمة تعيقني عن التفكير، لم أستطعْ أن أودعَ أخي كما كنتُ أتمنى. بعد وفاةِ أخي ودفنه، عاد أبي إلى موقعِ الباصِ المحترقِ، حيث بقيتْ أمي وأختي وزوجةُ عمي وابنتُها طوالَ الليلِ يحترقون. لم يتمكنْ أحدٌ من الاقترابِ من الباصِ المحترقِ بسبب استمرارِ القصفِ والقنصِ. ومع ذلك، عندما ماتَ جاد ودفنوه، قررَ أبي، كما أخبرني لاحقًا، أن يعودَ إلى الموقعِ رغمَ القنصِ والقصفِ لانتشالِ جثثِ أمي وأختي والعائلة. وجدهم قد تفحموا بالكاملِ. دفنوا أمي وأختي وزوجةَ عمي وابنتَها في كفنٍ واحدٍ. أخبرني أبي أنهم كانوا حتى أقلَّ من كفنٍ، مجرد كتلٍ محترقةٍ صغيرةٍ. هكذا دفنوهم معًا، أشلاءٌ متفحمةٌ بفعلِ النيرانُ والدمارِ.

عادَ أبي إليَّ بعدَ دفنهم، الألمُ يشتدُّ عليَّ، وليس هناك مسكناتٌ، ولم أكن قد رأيتُ وجهي بعد. لاحقًا اكتشفتُ أنني مشوهٌ لهذه الدرجة. الحروقُ شديدةٌ وصعبةٌ، والوجعُ لا يُحتمل. أصعبُ شيءٍ في الحياةِ هو الحروقُ، ودرجةُ حرقي كانت ثلاثةٌ ونصف. ظلَّ أبي لأيامٍ يبحثُ عن أدويةِ الحروقِ، كنّا تسعةَ مصابينَ بحروقٍ شديدةٍ، لكن تمَّ إخراجنا من المستشفى، لأنّه ليس هناك أيُّ فائدةٍ من بقائنا. لا توجدُ أدويةٌ، ولا مسكناتٌ، ولا حتّى أسِرَّةٌ لنا، ولا مكان نستطيعُ البقاءَ فيه. استمرَّ أبي في البحثِ حتّى وجدَ شاشًا ومحاليلَ طبية بصعوبةٍ. بدأنا نشمُّ رائحةَ أجسادنا المتحللةِ، كان ذلك عذابًا لا يُطاق. عدنا إلى معسكرِ الشاطئ، إلى بيتنا! هل يمكنكِ تصديقُ ذلك؟ ليس لدينا مكانٌ آخرُ نذهبُ إليه، فعدنا إلى المكانِ الذي هربنا منه. حاولَ أبي معالجةَ جروحنا، لكن مع استمرارِ القصفِ وغيابِ الأدويةِ والطعامِ والشرابِ، شعرنا بأننا سنموتُ جميعًا. لكنّ الخوفَ الأكبرَ كان من العفنِ، أن تتعفنَ أجسادنا. تمنيتُ الموتَ حينها، وصرتُ أدعو اللهَ أن أموتَ.

اعتقدتُ أن القصفَ سيقتلنا، انتظرتُ الموتَ، لكنّه لم يأتِ. قررَ أبي في النهايةِ أن نذهبَ إلى معبرِ رفح في محاولة لإنقاذي. قال إنّ علينا أن نمشيَ إلى المعبرِ، لديه صديقٌ صحافيٌّ يريد مساعدتي في العلاجِ. أخبرنا هذا الصديق أن نخرجَ بين التاسعةِ صباحًا والثانيةِ ظهرًا، لكنّ الناسَ من حولنا حذرونا، وقالوا إننا سنموتُ تحتَ القصفِ أو القنصِ. ومع ذلك، أصرَّ أبي. خرجنا مشيًا، وأوصلونا إلى جامعِ الشيخِ عجلين باتجاهِ الجنوبِ. ذهبنا أنا وأبي مشيًا، نحملُ علمًا أبيضَ. كنتُ ملفوفًا بحروقي، لا أستطيعُ فهمَ كيف تمكنتُ من المشي! كنتُ خائفًا من الشمسِ، لكن السماءَ كانت غائمةً، فتابعنا السيرَ. مررنا بحاجزٍ إسرائيليٍّ، ومشينا ساعاتٍ طويلةً، استمر القصفُ من حولنا. رأينا أشياءَ مرعبةً، وأبي كان يحملُ أربعَ حقائبَ والعلمَ الأبيضَ. في النهايةِ، وصلنا بعدَ عبورِ وادي غزة، وجاءَ ابنُ عمتي ليأخذنا إلى المعبرِ. ما زلتُ لا أفهم ما حدث لنا! كان علمُ الباص أزرقَ، علمُ الأونروا، اعتقدت أنهم لن يقصفوا باصًا تابعًا للأمم المتحدة. لكنني كنتُ مخطئًا. لماذا كان القناص يصوّب إلى الجثث المحترقة! لماذا كانت الطائراتُ «الزنانة» تعاود قصف الباص! أنا ما زلتُ صغيرًا كما يقولون، عمري 13 عامًا ونصف الآن، لكنني أفهم الكثير. رأيتُ الشهداء، رأيتُ الموتى والجرحى، لا يمكنني وصف المشهد كاملا. الأصعبُ رؤيةَ من فقدوا أطرافهم، لا يمكنني وصف الألم الذي شعرتُ به. ربّما يجب أن تزوري غزة لتشعري بما حدث، أنا رغم عمري لم أعد طفلًا. ماذا يعني أن أفقد أهلي؟ ماذا يعني أن يموت أخي جاد محترقًا هكذا؟ رأيتُ أمي بعينيّ وهي تحترق. حاولتُ إنقاذها، لكنّ الباب الكهربائي لم يفتحْ! السائقُ هرب من الباص، ولم أتمكن من فتح الباب. عمي رمى ابنه من الشباك، وأنا نجوتُ لأنّ عمي فتح الباب في النهاية، لكن الصاروخ كان قد سقط على أمي وأختي واحترقتا، لقد كانتا في الجهةِ التي سقطَ فيها الصاروخ.

صَمْت...

وُلدتُ في الحرب، وكان ما نعيشه من قصف يبدو «عاديًا» بالنسبة لي. لم يخطر في بالي أبدًا أنهم سيحرقوننا هكذا! لقد شهدتُ حربًا قبل هذه، أعتقدتُ أنني معتادٌ على القصف. تعرفين! في غزة، لا يوجد أطفال؛ نكبر قبل أواننا. انظري إليّ، وجهي محروق، جسدي كلّه مليءُ بالشظايا. لا أستطيعُ الحديث عن الألم، هو غير قابلٍ للوصف! لا يوجد تخدير، عشتُ كلّ الألم، أنا أعرفُ الآن تماماً ما هي «جهنم». تمنيتُ الموتَ، لكنّي لم أمتْ. ما زلت تقولين إنني طفل! أنا لا أفهم ما يعنيه ذلك. أفكر الآن في أخي الباقي في غزة، وأعرفُ أنّ وجهي المحترق لن يعودَ طبيعيًا أبدًا. انظري، هذه صورتي قبل الحريقِ، هل تصدقين! كنتُ ولدًا جميلًا سعيدًا.

> الوجع لا يحتمل. أصعب شيء في الحياة هو الحروق، ودرجة حرقي كانت ثلاثة ونصف

أطفال يعيشون حرباً تلو الأخرى (مجدي فتحي/ Getty)

أصيب كثيرون بحروق في غزة (أشرف أبو عمرة/ الأناضول)